

بلاغة الحمد والتمجيد في أدب الجدّ والحفيد

الأستاذة الدكتورة

حميدة صالح البلاوي

(جامعة بغداد - كلية التربية للبنات) قسم اللغة العربية

بلاغة الحمد والتمجيد في أدب الجدّ والحفيد

نهج البلاغة للإمام علي بن أبي طالب
والصحيفة السجادية للإمام علي بن
الحسين (عليهما السلام)

الاستاذة الدكتورة: حميدة صالح البلداوي (جامعة بغداد،
كلية التربية للبنات) - قسم اللغة العربية

توطئة:

الحمد يعني الثناء والشكر وهو أعم من المدح
(فهو يقع على الثناء، وعلى التحميد وعلى
الشكر والجزاء) ^١.

ولقد ترددت هذه المفردة كثيراً في القرآن الكريم
حتى بلغت ستين مرة) جاء (١٥) منها مع
التسبيح و (٢٨) مع ذكر الله تعالى ووردت اسماً
من أسمائه الحسنی (١٧) وشاءت الإرادة الإلهية
تسمية نبينا محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)
من (الحمد).

وعن مكانة الحمد عند رب العالمين يقول الإمام
علي (عليه السلام) (من شرف هذه الكلمة وهي
الحمد لله أن الله تعالى جعلها فاتحة كتابه،

١ . معاني القرآن الكريم: ١،٥٧.

وجعلها خاتمة دعوى أهل جنته فقال «وآخر
دعواهم أن الحمد لله ربّ العالمين»^٢.
كما جعلها سبحانه (طريقاً من طرق الاعتراف
بلاهوتيته وصمدانيته)^٣ حين قرنه بالتسييح.
وأما التمجيد فهو (التعظيم والاعلاء)^٤ وهو الله
وحده، ولم ترد اللفظة إلا مرة واحدة في القرآن
الكريم اسماً من أسمائه تعالى مقرونة بالحمد في
قوله سبحانه يخبر عن بشارة الملائكة لإبراهيم
(عليه السلام) «قالوا: أتعجبين من أمرالله
رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت انه حميد
مجيد»^٥.

جاء في وصية الإمام علي (عليه السلام) لعامله
مالك بن الحارث الأشتر النخعي الذائعة الصيت
حينما ولاه إمارة مصر ما ينهاه فيها ويحذره من
العظمة والتجبر لأنها لله وحده (وإياك ومساواة
الله في عظمته والتشبه به في جبروته فإن الله

-
- ١ . يونس: ١٠.
 - ٢ . شرح نهج البلاغة: ٢٠ ، ٤٩١.
 - ٣ . تحف العقول: ٩.
 - ٤ . القاموس المحيط: مادة (مجد).
 - ٥ . هود: ٧٣.

يذلُّ كلَّ جبارٍ ويهينُ كلَّ مختالٍ^١ ومع أن (غاية كل متعمق في معرفة الخالق سبحانه الاعتراف بالقصور عن إدراكها)^٢ فإنَّه سبحانه حبَّب للعبد سبلَ التفكّر والتأمّل في عظّمته وجعل السموات الأرض وما بينهما آيات تدل عليه وتهدى إليه. وللإمام علي (عليه السلام) (من عجيب الكلام في التوحيد والعدل وتنزيه الله سبحانه وتعالى عن شبه الخلق ما هو بلال كلِّ غلّة وشفاء كلِّ علة وجلاء كلِّ شبهة..)^٣ من هنا تولدت الرغبة الصادقة في الجمع بين أكبر انجازين متكاملين في إرث آل بيت النبي (صلوات الله عليهم أجمعين) وهما نهج البلاغة والصحيفة السجادية فهما حلقتان من (تلك الدائرة المعنوية العلوية التي تتجلى فيها نصوص الأئمة من آل البيت بجمال اللفظة والعبارة والتشابه بين المضامين والتمييز الخاص بكل منهم)^٤ وذلك بجهدٍ يتقصّى ملامح الإبداع الفني ويبحث في مواطن البلاغة في جملة محاور:

١ . شرح نهج البلاغة: ١٧ ، ٢٤ .

٢ . م. ن: ٢٠ ، ٤٤٩ .

٣ . شرح نهج البلاغة: ١ ، ٥١ .

٤ . قراءة لغوية ونقدية في الصحيفة السجادية: ٧٦ .

جاء المحور الأول في دراسة بلاغة التكتيف
والتفصيل والبحث عن الوسائل الفنية التي حققت
الاختزال وتلك التي أوجدت الاتساع.

وعرض المحور الثاني لأخصّ ظاهرة تمنح
النصوص الأدبية سمة الخلود ألا وهي بلاغة
الاعتدال في الخطاب.

وأما المحور الثالث فقد تناول أكثر الأساليب
شيوعاً في أدب التمجيد وهو أسلوب القصر
والحصر بصيغته المتعددة بحثاً عن اليقين
وبلاغة إرساله للأخريين، وتوقف المحور الرابع
عند ما هو أقرب إلى فن الخطبة وهو الأسلوب
الحواري الجدلي الذي قابله فن المناجاة في
أدعية الإمام السجاد (عليه السلام) بأداءٍ خاص
لدى كل من النتاجين يتوافق مع المقام الذي
صدر عنه المقال متناولاً بلاغة التواصل في
الحوار.

وستشير الباحثة بصيغة (النص العلوي) إلى
أدب الإمام علي (عليه السلام) وبصيغة (النص
السجادي) إلى أدب الإمام علي بن الحسين (عليه
السلام).

أولاً: بلاغة التكثيف والتفصيل

إن تكثيف المضمون المحمّل بالأفكار في خطاب قصير مرّكز يمنحه جمالاً خاصاً وهو يعود لتلك القدرة البلاغية على استيعاء الألفاظ وتواشجها مع بعضها في تراكيب تنهض بطاقات فكرية مبدعة ومؤثرة ولعله (الركيزة الرئيسة في عملية التحول بالكلام من مستوى التعبير العادي إلى المستوى الاستثنائي الذي يمنحه صفة الجمال)^١.

يختزل النص العلوي في إشاراته إلى دوام الحمد بتوافق زمني في مستهلّ تعبدي لخطبة له بقوله (الحمد لله كلما وقب ليل وغسق والحمد لله كلما لاح نجم وخفق)^٢.

كما يوجز حين يقدم لنا إجابات مسبقة عن مبهمات مقدّرة (على ماذا نحمده؟): (نحمده على ما أخذ وأعطى وعلى ما أبلى وابتلى)^٣،

وجواباً على (لماذا نحمده؟) بأن نجعله (حمداً يكون لحقه قضاء ولشكره أداء وإلى ثوابه مقرباً ولحسن مزیده موجباً)^٤ ردّاً على من يبحث في

١ . المستويات الجمالية في نهج البلاغة: ١٢٧ .

٢ . شرح نهج البلاغة: ٣ ، ١٣٨ .

٣ . م. ن: ٨ ، ٣٨٣ .

٤ . م. ن: ١٠ ، ٢٦٩ .

كيفية هذا الحمد وصفته قائلاً في سياق الدعاء
(حمداً يملأ ما خلقت ويبلغ ما أردتَ حمداً لا
يُحجب عنك ولا يقصر دونك، حمداً لا ينقطع
عدده ولا يفنى مدده) ١.

ومن شواهد الزخم الدلالي المكثف للمعنى قوله
(لو لم يتوعد الله على معصيته لكان يجب ألا
يُعصى شكراً لنعمه) ٢.

وبعد حمد الله والثناء عليه سبحانه كان النص
العلوي يقرنه بذكر النبي (صلى الله عليه وآله
وسلم) فحين يستهل الخطبة بقوله (الحمد لله
الأول فلا شيء قبله والآخر فلا شيء بعده) ٣

نجد مما اختاره الشريف الرضي، من هذه
الخطبة في ذكر الرسول (صلى الله عليه وآله
وسلم) (مستقرّة خير مستقر ومنبته أشرف
منبت... دفن الله به الضّعائن وأطفأ به
النوائر..كلامه بيان وصمته لسان).

وقد جاء التكثيف بتوافق البناء وتماسكه في هذه
الجملة القصيرة المكتظة بالمضامين و (بما

١. م. ن: ١٠، ١٤٩.

٢. م. ن: ١٩، ١٤.

٣. م. ن ٧، ٤٧.

ينسجم مع المقام الإلهي والنبوي في اقترانهما
(القدسي)¹.

أمّا ما جاء مفصلاً فقولُه في مستهل الخطبة
الغراء (الحمد لله الذي علا بحوله ودنا بطوله
مانح كل غنيمة وفضل، وكاشف كلّ عزيمة
وأزل، أحمده على عواطف كرمه وسوايغ
نعمه)².

وقد جاء التفصيل فيما أعقب هذا الاستهلال
موصياً ومذكراً بآلاء الله تعالى (أوصيكم عباد
الله الذي ضرب لكم الأمثال، ووّقت لكم الآجال
وألبسكم الرياش وأرفع لكم المعاش وأحاط بكم
الاحصاء وأرصد لكم الجزاء وأقركم بالتّعم
السوايغ والرفد الروافع وأنذركم بالحجج
البوايغ)³.

أمّا في أدب السجاد (عليه السلام) فكان الحمد
يشغل مساحة واسعة من أدعيته ومناجياته وكان
من خصائص منهجه هنا التفصيل والتبسيط ففي
أول نصّ بالصحيفة نقرأ دعاء التمجيد والثناء لله
عزّ وجلّ مبتدئاً بقوله (عليه السلام) (الحمد لله

١ . الخطاب في نهج البلاغة: ١٤١.

٢ . شرح نهج البلاغة: ٦ ، ٣٣٨.

٣ . م. ن: ٦ ، ٣٤٠.

الأول بلا أول كان قبله والآخر بلا آخر يكون
بعده الذي قصرت عن رؤيته أبصار الناظرين
وعجزت عن نعته أو هام الواصفين^١ وبعد

ذكره لعظمة الله في خلق عباده يشير إلى أهمية
الحمد نعمة من الخالق وأثرها فيهم (والحمد لله
الذي لو حبس عن عباده معرفة حمده على ما
أبلاه من مننه المتتابعة وأسبغ عليهم من نعمه
المتظاهرة لتصرفوا في مننه فلم يحمده أو
توسّعوا في رزقه فلم يشكروه، ولو كانوا كذلك
لخرجوا من حدود الانسانية إلى حد البهيمية)
وبعد أن يعرض لمنافذ الحمد ويتناول وصفه
يعود إلى بيان أثره ومنزلته في الدنيا والآخرة
بأن يكون (حمداً نعمةً به فيمن حمده من خلقه..
يضيء لنا به ظلمات البرزخ ويسهل علينا سبيل
المبعث.. حمداً يرتفع منا إلى أعلى علينا...
حمداً تقر به عيوننا.. وتبيض به وجوهنا.. حمداً
نعنق به من أليم نار الله.

حمداً نزاحم به ملائكته) وإثر هذا الوصف
المتأني كيف يكون وما جزاؤه يعود ليفصل في
موجبات هذا الحمد وقد ساعد على هذا التفصيل
تكرار المضامين بأساليب عدة ومحاولة الإحاطة
الشاملة كما في الاستغراق في الوصف: (تحمدك

١ . الصحيفة السجادية: ٣٣.

نفسى ولسانى وعقلي)١ وقوله (والحمد لله بكل ما حمده به أدنى ملائكته إليه وأكرم خليقته عليه.. حمدا يفضل سائر الحمد.. له الحمد مكان كل نعمة له علينا.. أبدا سرمدا إلى يوم القيامة حمدا لا منتهى لحدّه ولا حساب لعدده ولا مبلغ لعنايته ولا انقطاع لأمده.. حمدا نعد به من السعداء من أوليائه ونصير به في نظم الشهداء بسيوف أعدائه انه ولي حميد)٢.

ثم يفرد اللّص السجادي بعد هذا الحمد المفصل الشامل حمدا لله بأن شرفّ ومنّ عليهم بنبيه محمّد (صلى الله عليه وآله وسلم) ذاكرأ فيه صفات النبي وفضله على أمته ثم يدعو مناجيا في آخر الدعاء (اللهم فارفعه بما كدح فيك إلى الدرجة العليا من جنتك)

إن هذا التفصيل يشير إلى أمرين: الأول هو الغاية الموضوعية التوجيهية في إعادة المجتمع المخاطب إلى القناعة والاحساس بالرضا بذكر الله والغاية الذاتية النفسية التي تخصّ جانب العبادة وهي الدعاء وأول آدابه الحمد والشكر لله.

١. م. ن: ٢٣٠.

٢. الصحيفة السجادية ٣٧.

وإن كان الخطبان (العلوي والسجادي) قد خصّا الحمد بالتقديم وتناولاه بإمعان في ذكر دواعيه وعرض مستحقّاته وثوابه وكيفيته، فإنّ محاولة الاحاطة بالتمجيد تظلّ قاصرة لأنّ الله تعالى كما يقول الامام علي (عليه السلام) (غالب لمقال الواصفين)^١ على أنه سبحانه جعل ذكره وإدامة تسبيحه وتنزيهه (جلاءً للقلوب)^٢.

ولما كان الإمام كما يقول عباس محمود العقاد قد (جعل الدين موضوعاً من موضوعات التفكير والتأمل ولم يقصره على العبادة)^٣ فقد حفلت

خطبه بأبلغ ما يقتضيه التمجيد مشيرة إلى صدق يقينه وعظيم علمه أو لم يقل (عليه السلام) (سلوني قبل أن تفقدوني فلأنا بطرق السماء أعلم منّي بطرق الأرض)^٤ ثقة منه بقوة معرفته وماتجلى به من (مزية العقول العالية والنفوس

١ . شرح نهج البلاغة: ١١ ، ٤٣ .

٢ . م. ن: ١١ ، ١٢١ .

٣ . العبقريات الإسلامية: ٦٧٧ .

٤ . شرح نهج البلاغة: ١٣ ، ٧٠ .

الرفيعة)^١ أو لم يقل (لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا)^٢.

وما كانت تجلياته فيما قدم من أدب التمجيد إلا مصداقاً لقول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فيه (علي مع القرآن والقرآن مع علي لن يفترقا حتى يردا علي الحوض)^٣ وقوله أيضاً (صلى الله عليه وآله وسلم) (أنا مدينة العلم وعلي بابها فمن اراد العلم فليأتها من بابها)^٤.

لكلّ هذا جاءت محاور التمجيد في خطبة مقصودة وغالبة بيّن فيها عظمة الله تعالى منزلها ومقدساً وعارضاً قدرته - تعالى - في خلق السموات والأرض وما بينهما وكانت هذه المحاور مستقلة حيناً ومرتبطة حيناً آخر بموضوعات أخرى كالوصية والموعظة والدعاء، وما قد يتطلبه الموقف التاريخي آنذاك من انذار أو تحريض أو توجيه روحي، فقد كان الأدب العلوي يتجه إلى أهل حقبة عاصرها الامام كثر في المساجلات والشكوك والأقوال

١ . قراءات انطباعية في نهج البلاغة: ١ ، ٤٩ .

٢ . شرح نهج البلاغة: ١١ ، ١٣٩ .

٣ . المستدرک علی الصحیحین ٣ ، ٣٣٧ ح ٤٦٨٦ .

٤ . م.ن. ٣ ، ٣٣٩ ح ٤٦٩٥ ، ٤٦٩٦ .

من الفرق الكلامية وغيرها فجاء التنزيه رداً على المشبهة والمجسمة وغيرها بأبلغ حجج تعتمد البرهان العقلي والتأمل الفكري يؤيدها الدليل القرآني المفحم.

أما الإيجاز سمة للخطاب فإنّ البحث يجد له مسوغات ومنها (مراعاة المخاطب) ومن شواهد الميل لعرض الظواهر الكونية (الكليات) في اثبات عظمة الخالق لقدرة الفكر البشري على استيعابها وتصوره عن استيعاب جزئياتها. وهكذا جاءت الأدلة من مظاهر الوجود المدركة، ذلك أنه سبحانه كما يقول الامام علي (عليه السلام) (لم يطلع العقول على تحديد صفته ولم يحجبها عن واجب معرفته فهو الذي تشهد له أعلام الوجود)^١.

من هنا نقرأ في أدبه الخطابى ممجدا الخالق: (الحمد لله الذي بطن خفيات الأمور ودلت عليه أعلام الظهور وامتنع على عين البصير فلا عين من لم يره تتكره، ولا قلب من أثبتته ببصره)^٢

وهو ما يتمعن به البحث في قراءته لخطبة في عجيب صفة الكون أنجز في مقاطع سردية بلغة تنتمي إلى لغة القرآن الكريم بتكثيفها الصوري

١ . شرح نهج البلاغة: ٣ ، ١٤٩ .

٢ . شرح نهج البلاغة: ٣ ، ١٤٩ .

وهي تصف مشاهد الخلق الإلهي للأرض
والسماوات بنتابع للأحداث على وفق تواجد
المخلوقات لغاية ابتغاها الخطاب وهي خشية الله
بالتفكر والتأمل جاء في المقطع الأول (وكان من
اقتدار جبروته وبيدع لطائف صفته أن جعل من
ماء البحر الزاخر المتراكم المتقاصف يبسا
جامداً ثم فطر منه أطباقاً ففتقها سبع سموات بعد
ارتقاقها فاستمسكت بأمره) وجاء المقطع الأخير
متابعاً قصة الخلق بالسرد الوصفي في تسبيح الله
تعالى (فسبحان من أمسكها بعد موجان مياهها
وأجمدها بعد رطوبة أكنافها فجعلها لخلقها مهادا
وبسطها لهم فراشا فوق بحر لحي.. إن في ذلك
لعبرة لمن يخشى) ١.

أثار النص مخيلة المخاطب بعرضه لهذه الصور
الفنية بتحفيز سمعه وبصره وذهنه وتنبهه
احساسه ليصل به إلى الهيبة والتعظيم ويقومه في
موقف التمجيد لله تعالى والتقرب منه ذلك أن هذا
(الاستمتاع بالجمال الكوني يسبغ على العقل
استشعاراً بتفرد الخالق) ٢.

ويأتي التضاد بالثنائيات المتنافرة ليزيد الخطاب
تكثيفاً ويخلق جواً نفسياً يمتلئ بالدفق الشعوري

١. م.ن: ١١، ٣٦.

٢. الخطاب في نهج البلاغة: ٣٨.

والتأمل الذهني. يقول النصّ العلوي في تمجيد القدرة الإلهية (ضادّ النور بالظلمة والوضوح بالبهمة والجمود بالليل والحرور بالصرد، مؤلف بين متعادياتها مقارن بين متبايناتها مقرب بين متباعداتها مفرّق بين متدانياتها) ١.

أيّ صورة تذهل من يتأملها وتذيب احساسه خشوعاً، مع أنه يعيش حقيقتها كل لحظة ولا ينفك يتعاطاها، لقد استطاع النصّ بجملة القصار وكأنّها إيقاعات تنبيهية أن يزيح الاسترخاء الذهني ويحيط المخاطب ببلاغة فائقة بهذه القدرة العظيمة للخالق على الجمع والتفريق والابعاد والإدناء بين المتناقضات وقربّ الفكرة حين قدّمها بالمدرّك من الحسيّات.

وبهندسة لفظية لا تبارى يقدم النصّ العلوي ويؤخر في هذه المتناقضات بما يفاجئ الذهن ولا يقطع تواصله في التنبيه باختزال عميق في تناوله حين يقول (قرب فنأى وعلا فدنا وظهر فبطن ودان ولم يدن) ٢.

بروح المتصوف العارف ربّه يتحدث عن الحضور الإلهي في قلب المؤمن، ذلك الحضور المهيم الشامل ليس بأن تراه بل تجده وهو

١ . شرح نهج البلاغة: ١٣ ، ٥١ .
٢ . شرح نهج البلاغة: ١٠ ، ٣٣٠ .

يراك، وتهابه في تعاليه وعظمته فتحبه خائفاً،
وتخافه حاضراً أبداً.
وأما الشرط وجوابه فقد حقق بهيمنته تكثيفاً
جميلاً وذلك لخاصيته الشمولية من استحضار
الفكرة والتقديم لها بأداة ثم استجلاء النتيجة
بالاستدلال عليها مع توليد جمل أخرى تبعاً
لاستمرار فاعلية الفكرة المعروضة كما في
دحض قول المشبهة بقوله (عليه السلام) (فمن
وصف الله سبحانه فقد قرنه ومن قرنه فقد ثناه
ومن ثناه فقد جزأه..)^١.

وأما أول صيغة في الخطاب وهي (عباد الله) فقد
كثفت بهذا النداء معنى العبودية لله وحثت على
الخشوع والاحساس الصادق بربوبية الخالق بل
وأوضح النص من الأحب من هؤلاء العباد عند
الله (عباد الله إن من أحب عباد الله إليه عبداً
أعانه الله على نفسه فاستشعر الحزن وتجلبب
الخوف... فهو من اليقين على مثل ضوء الشمس
قد نصب نفسه لله سبحانه في أرفع الأمور)^٢.

وما نتأمله في أدب السجاد (عليه السلام) هو
حسن ائتلاف في تضاد يمنح الخطاب سمة
التكثيف أيضاً كما في قوله (اللهم إنك من واليت

١. م.ن: ١ ، ٦٢.
٢. م.ن: ٦ ، ٤٢١.

لم يضرره خذلان الخاذلين ومن أعطيت لم ينقصه منع المانعين ومن هديت لم يغوّه اضلال (المضئين)^١.

فولاء الله تعالى ونصرته مضادة لخذلان الانسان للانسان، وعطاؤه مناهض لمنعهم، وهدايته نقيضة لغوايتهم، وهي تحيل جميعاً إلى قدرة الله جلّ وعلا في باب علاقة الخالق بالمخلوق ورحمته لهم وقدرته عليهم.

ومن شواهد الاكتفاء بالفعل من غير ذكر لمفعولاته في بيان القدرة الإلهية (أنت الذي ابتدأ واخترع واستحدث وابتدع)^٢ فالمهم والمطلوب

هنا هو (ذكر الحدث وحده)^٣.

وقد اتضح الايجاز كثيراً في باب أدعية (الأيام) إذ استهلها الامام بالحمد والتمجيد في جمل قصار. كما في قوله بدعاء يوم الأربعاء.

فالجزء الأول يختص بالحمد وقد جاء فيه (الحمد لله الذي جعل الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا، لك الحمد أن بعثتني من مرقدتي ولو شئت جعلته سرمداً حمداً دائماً لا ينقطع أبداً

١ . الصحيفة السجادية: ٥٠.

٢ . م.ن: ١٩٨.

٣ . قراءة لغوية ونقدية في الصحيفة السجادية: ١٠٦.

ولا يُحصي له الخلائق عددا) ١ ثم يليه بالتمجيد
لعظمة ما خلق فكان خلقاً سوياً، وما دبر من
أمرهم، ولعظيم سلطانه وعزّه (اللهم لك الحمد
أن خلقت فسويّيت، وقدرت وقضيت وأمتّ
وأحييت وأمضت وشفيت وعافيت وأبليت
وعلى العرش استويت وعلى الملك احتويت)
وأما أخص موضع يتضح فيه التكثيف واختزال
المضامين مع القدرة العالية على الإفضاء بها
بتوافق صوتي فهو ما جاء في التسيبحات، ففي
كلّ جملة تنزيهية احساس عميق محتشد بالرهبة
للإرادة الإلهية، ولأنّه ثابت عميق فإنّ الإفضاء
به جاء بأنفاس متهددة لا تطيل ولا تفصل بل
تتصاعد شيئاً فشيئاً فمن توجه إليه الخطاب داعياً
بصيغة التسيبح أعلم به سبحانه جلّ وعلا.
شاء الموقف الجليل إذن ومعه النفس المحمّلة
بأصدق اليقين هذا الأيجاز في التمجيد يقول
النص السجّادي: ٢

سبحانك اللهم وحنانيت
سبحانك اللهم وتعاليت
سبحانك اللهم والعزّ أزارك
سبحانك اللهم والعظمة رداؤك

١ . الصحيفة السجّادية: ٢٦٦ .

٢ . م . ن ٢٤١ .

سبحانك اللهم والكبرياء سلطانك

سبحانك من عظيم ما أعظمك

أمّا التفصيل والاطالة في التمجيد فإنّ البحث يجد له شواهد في الخطب العلوية المطولة، إذ يتصدرها التنزيه ويشغل حيزاً واضحاً ومنها خطبته في التوحيد التي جمع فيها (من أصول العلم ما لا تجمعها خطبة غيرها) ^١ فمن الفنون البلاغية التي ساعدت على الاطناب فن الاحتراس وهو (أن يؤتى في كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفعه) ^٢.

يقول النص العلوي في عظمة الله تعالى (فاعل لا باضطراب آله، مقدر بجول فكرة غني لا باستفادة...) فحين قال فاعل رفع الايهام من هذا الوصف وما يستوجبه الفعل من أدوات وحركات باثبات أن الفعلية غير مجسّدة وقد أغنى الخطبة بجملة مباحث تتواصل مع غيرها في تنزيه الخالق عن الحدوث كما ختمها في ذكر قدرة الله على بعث الخلق يوم الحساب كما بدأهم (وإله سبحانه يعود بعد فناء الدنيا وحده لأشياء معه كما كان قبل ابتدائها كذلك يكون بعد فنائها بلا وقت ولا مكان ولا حين ولا زمان عُدمت عند

١ . الصحيفة السجادية. شرح نهج البلاغة ١٣ ، ٤٨ .

٢ . الإيضاح في علم البلاغة: ١٩٢ .

ذلك الآجال والأوقات وزالت السنون والساعات
فلا شيء إلا الله الواحد القهار الذي إليه مصير
جميع الأمور.. ثم يعيدها بعد الفناء من غير
حاجة منه إليها ولا استعانة بشيء منها عليها)¹.

وكانت الايقاعات السردية استرجاعاً واستباقاً
زمنياً ومكانياً هي التي أثرت الخطبة بمشاهدها
متوافقة مع كون الخطبة في مقام الموعظة
والتوجيه الروحي.

على أن الاطناب عموماً أكثر وضوحاً في
الصحيفة السجادية حققها التكرار والتبسيط
والجمل الاعتراضية.

فمن التكرار مثلاً تكرار أداة الاستفهام (من) دالاً
بها على النفي والاستبعاد (إلهي إن رفعتني فمن
ذا الذي يضعني وإن وضعتني فمن ذا الذي
يرفعني، وإن أكرمتني فمن ذا الذي يهينني وإن
أهنتني فمن ذا الذي يكرمني)².

ذلك أن الدعاء يقتضي الافضاء والتضرع أنساً
بمناجاة الخالق بطرق وسبل متعددة فيها تنوع
بالعرض والتفصيل وإن كان يغلب عليه تناسب
متناظر ومطرّد أيضاً، فتوحيد الله تعالى يقابله

١ . شرح نهج البلاغة: ١٣ ، ٦٢ - ٦٣ .

٢ . الصحيفة السجادية: ٢٢٠ .

الاقرار بالعبودية وتمجيده تعالى وتعظيمه يقابله
التذلل والاستكانة.

ولقد تفنّن النّص السجادي في عرضه لصور
التمجيد لأن أدب الدعاء له مقتضياته الخاصة
ومنها الاستهلال بالحمد والمناجاة والتضرع قبل
الافضاء بالمقصود، لذا جاء بأساليب عدة منها
المقابلة والاستقصاء الشامل والتفنن في إيراد
الفكرة الواحدة فمن جمل فعالية بصيغة الماضي
إلى جمل اسمية حالية ومن صيغ منفية إلى
أخرى مثبتة حتى ليتسع الدعاء بتفصيلاته
ويطول يقول النص السجادي في خاتمة دعائه
في يوم الفطر (وقد تقدمت بالوعيد وتلطفت في
الترغيب وضربت الأمثال وأطلت الامهال
وأخرت وأنت مستطيع للمعالجة وتأنيث وأنت
مليء بالمبادرة لم تكن أناتك عجزاً ولا امهالك
وهناً ولا امساكك غفلة ولا انتظارك مداراة بل
لتكون حجّتك أبلغ وكرّمك أكمل واحسانك أوفى
ونعمتك أتم كل ذلك كان ولم تزل وهو كائنٌ ولا
تزال حجّتك أجلّ من أن توصف بكلّها ومجدك
أرفع من أن تحدّ بكنهه ونعمتك أكثر من أن
تُحصى بأسرها واحسانك أكثر من أن تشكر
على أحلّة وقد قصرّ بي السكوت بمن تحميدك

وفهّني الامساك عن تمجيدك وقصاري الاقرار
بالحسور لا رغبة يا إلهي بل عجزاً^١.

وأما التوكيد ف جاء بمؤديات عدّة، فمن توكيد
الصفة بالسلب بعد الايجاب (خالق لا نظير له
وأحد لا ندّ له ووحد لا ضدّ له وصمد لا كفو
له)^٢ أو تقديم النفي وصولاً لاثبات اسم الجلالة
(ليس له حدّ في مكان ولا غاية في زمان لم يزل
ولا يزول ولن يزال كذلك أبداً هو الاله الحيّ
القيوم)^٣.

وحين غلب في خطاب الحمد (الجمل الفعلية)
لأنّ فيه تسويغاً واستمالة لدوام الذكر وتبيّن
مواضع الحمد وأحقّيته فإنّ الجمل الاسمية هي
التي شغلت الجانب الأكبر من نصوص التمجيد
لأنّها تعابير تدل على الاستقرار والثبات
والعمق. وتأتي الجمل غالباً متعلّقة ببعضها
متوالية في عرضها صلة للموصول (الذي) في
النص العلوي وتاليه للفظة (اللهم ويا إلهي) في
النص السجادي لما يستلزمه الدعاء من مثل هذه
التراكيب في التضرع والانابة.

١. م. ن: ١٩٥.

٢. الصحيفة السجادية: ٢٤٤.

٣. م. ن: ٢٤٥.

ثانياً: بلاغة الاعتدال

الاعتدال نقيض الاضطراب وقد جعله (ابن طباطبا العلوي ت ٣٢٢هـ) أساس الجمال وعلّة التذوق والاعجاب بقوله (علّة كل حسن مقبول الاعتدال)^١ ولقد توزّع هذا الاعتدال في الخطابين في جملة أمور منها (التوافق والتناسب والتوازن).

١- التوافق: وبه ينتظم الخطاب حتى ليبدو وكأنّه (عقد مفصل)^٢ بما يحدثه من ترابط ووحدة في

القول ومن مظاهر التسلسل الموفق في التعبير عن الفكرة وجودة الانتقال في عرضها. نجد هذا في توافق المضامين مع ما يتصدر التمجيد في الخطب والأدعية توجهها وإيقاعا.

يقول النص العلوي (الحمد لله المعروف من غير رؤية والخالق من غير رؤية الذي لم يزل قائماً دائماً إذ لأسماء ذات بروج ولا حجب ذات أرتاح ولا ليل داج ولا بحر ساج ولا جبل ذو فجاج ولا فج ذو اعوجاج ولا أرض ذات مهاد)^٣ إلى هنا والصورة الغالبة تختص بالزمان

١ . عيار الشعر: ١٥ .

٢ . منهاج البلاغة: ٢٩٧ .

٣ . شرح نهج البلاغة: ٦ ، ٤٤١ .

والمكان فهناك هيمنة الاتساع في (ليل داغ)
و(بحر ساج) وهيمنة التحديد يتدرج (جبل وفج
وأرض) يأتي التوافق بعدها بالذهاب إلى الحركة
المستمرة في (والشمس والقمر دائبان في
مرضاته يُيليان كل جديد ويقربان كل بعيد)
لتتضح الصورة الشاملة للكون المخلوق بعد أن
لم يكن.

ويتضرع النص السجادي ممجداً في دعائه (في
طلب الحوائج) (اللهم يا منتهى مطلب الحاجات
ويا من عنده نيل الطلبات ويا من لا يبيع نعمه
بالأثمان ويا من لا يكثر عطاياه بالامتنان ويا
من يستغنى به ولا يستغنى عنه ويا من يرغب
إليه ولا يرغب عنه ويا من لا تفني خزائنه
المسائل ويا من لا تبدل حكمته الوسائل)¹.

فالمراد من الدعاء هو تلبية الحاجات لذا جاءت
الصورة الغالبة وهي تستوفي حقولها الدلالية
(كالنعمة والطلب والثمن والرغبة والمسألة
والخزائن والكرم) وجاء التوافق في استيعاب ما
قدّم له بقوله (يا منتهى مطلب الحاجات، بأن
رُفد هذا التقديم بتوضيح ما يختصّ بالله سبحانه
وحده في العطاء ويعجز عنه المخلوق، وهي
جملة تراكيب منفية (لا يبيع، لا يكثر، لا

١ . الصحيفة السجادية: ٧١.

يستغنى عنه، لا يرغب عنه، لا تفنى، لا تبدل، لا تنقطع) وصولاً إلى قوله (تمدّحت بالغناء عن خلقك وأنت أهل الغنى عنهم) ليفتح بها جملة تراكيب مثبتة متوالية أيضاً في تمجيد الله تعالى برزقه الذي لا يُحدُّ ولا ينفد.

٢- التناسب: وهو (أدعى لتعجب النفس وإيلاعها)^١ بما يحدثه من استجابة مريحة لدى

المتلقي كما في تناسب الاستهلال مع الغرض المقصود وكأته واجهة أو عنوان للنصّ الأدبي ففي خطبة للإمام علي (عليه السلام) في تنزيه الله وذكر آثار قدرته التي بدأها بقوله (الحمد لله الذي إليه مصائر الخلق وعواقب الأمر)^٢ نجد

أن وجهة الخطبة كانت في (الحث على الجهاد) واستنهاض المخاطبين وقد استهلّ التمجيد ببيان قدرة الله الذي إليه يرجع الخلق بما قدّمه في حياتهم الدنيا، وهو ما أفضت به الوصيّة في الجزء الثاني من الخطبة (أوصيكم عباد الله بتقوى الله الذي ألبسكم الرياش وأسبغ عليكم المعاش فلو أن أحداً يجد إلى البقاء سلماً أو لدفع الموت سبيلاً لكان ذلك سليمان من داود عليه السلام الذي سُخِّر له ملك الجن والانس مع

١ . منهاج البلغاء: ٢٤٥.

٢ . شرح نهج البلاغة: ١٠ ، ٢٦٩.

النبوة وعظيم الزلقة)^١ تضمّن الاستهلال كما يقول شارحها (من توحيد الله تعالى و تمجيدهِ والثناء عليه ما يشهد لنفسه)^٢.

وجاءت الوصية متناسبة مع ما تقدمها بفصاحتها وبديع كلامها وخاتمها أيضاً حيث أنّها ها بقوله وهو ينادي باعلى صورته (الجهاد الجهاد عباد الله ألا وإني معسكر في يومي هذا من أراد الرواح إلى الله فليخرج)^٣.

وفي تمجيد النص السجادي لقدرة الخالق على الخلق بقوله (والناظر بلا كلفة والفعال بلا عجز)^٤ نجد ما يقابله بالتناسب مع تفصيل أكثر في النص العلوي (لم يؤده خلق ما ابتدأ ولا تدبير ما ذرأ ولا وقف به عجز عمّا خلق ولا ولجت عليه شبهة فيما قضى وقدر بل قضاء متقن وعلم محكم وأمر مبرم)^٥.

شاء السياق أن تتحرك لفظة (عجز) بتمائل مواز للجملّة الأولى (لم يؤده) فجاءت فاعلاً أيضاً.

١. م.ن: ١٠، ٢٧٩.

٢. م.ن: ١٠، ٢٧٧.

٣. م.ن: ١٠، ٢٨٥.

٤. الصحيفة السجادية: ٢٤٥.

٥. شرح نهج البلاغة: ٥، ١٠٢.

ونجد توظيف المفردة نفسها في نص الامام السجاد (عليه السلام) بأن جاءت القيمة التعبيرية متلائمة مع ما تقدمها في عرض الصفات الإلهية بأسلوب النفي المطرد (بلا كلفة / بلا عجز) وهذه الكيفية في التعامل مع لفظة بعينها أكسبتها قيمتها بفضل مناسبتها لما تقدمها باعتدال جميل بليغ.

٣- التوازن: وهو أن (تراعى في الكلمتين الأخيرتين من القرينتين الوزن مع اختلاف الحرف الأخير منها)^١ وقد تحقق بالإيقاع

الصوتي في جملة مظاهر منها (التكرار والازدواج والموازاة والمقابلة) وكلها تفضي إلى حسن الترتيب والانتلاف.

وقد استدعى الخطبان هذا الأثر الإيقاعي للتواصل المباشر والحاجة للتأثير، ولانبعائه أيضاً من نفس خاشعة سارت على نهج اليقين والايمان وفاعلية أثرها في انتظام القول وتوازنه بالتالي، فالموازنة (مطلوبة في الكلام الذي يقصد فيه الفصاحة لأجل الاعتدال الذي هو مطلوب الطبع في جميع الأشياء)^٢.

وكما غلب بشكل واضح في النص العلوي نجده بكثرة أيضاً في الخطاب السجادي.

١. نهاية الأدب : ٧ ، ١٠٥ .

٢. شرح نهج البلاغة: ٣ ، ١٠٧ .

فمن الأول نقرأ (لا يدرك بوهم ولا يقدر بفهم
ولا يشغله سائل ولا ينقصه نائل ولا ينظر بعين
ولا يحد بأين)^١.

وكانّ الخطاب سيتواصل من غير انقطاع في
قول الامام السجاد (عليه السلام) (سبحانك
سبيلك جدد، وأمرك رشد، وأنت حي صمد،
سبحانك قولك حكم وقضاؤك حتم وإرادتك
عزم)^٢.

فالنفس المنتظم في توقيعاته القصيرة هي نفسها
في النص العلوي غير أنه هنا يتجه إلى الخالق
في الدعاء مسبحاً بجمل مثبتة، وإلى المخاطبين
في الحوار هناك منزهاً الخالق عن صفات
المخلوقات بنفي صفاتهم عنه سبحانه بجملٍ
منفية.

ثالثاً: (بلاغة الإرسال بالقصر والحصر)

يعدّ أسلوب القصر من أكثر الأساليب شيوعاً في
التمجيد لما يختصّ به من فاعلية وما تفيده أدواته
من معان.

١ . م. ن: ١٠ ، ٢٧٧ .

٢ . الصحيفة السجادية: ١٩٩ .

ف(إنّما) مثلا تفيد (ايجاب الفعل لشيء ونفيه عن غيره)^١ وهو ما يقتضيه التنزيه لأنه يعني (اثبات الصفات العظيمة لله وحده ونفيها عن المخلوقات و (دفع ما ينكره المخاطب)^٢.

أمّا الاثبات بعد النفي بـ(ما وإلا) فإنّها تفيد الاختصاص بالصفة والفعل (ونفيه عن عداه)^٣.

وكذلك التقديم الذي يفيد الحصر والتخصيص. فالقصر مطلوب ومنسجم في هذا الجانب وهو يأتي طواعية لا استجلابا يقول النص العلوي (وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الأول لا شيء قبله والآخر لا غاية له، لا تقع الأوهام على صفة ولا تعقد القلوب منه على كيفية ولا تناله التجزئة والتبعيض ولا تحيط به الأبصار والقلوب)^٤.

فالخطاب يقصر الألوهية على الله سبحانه ثم يؤكدّها بصيغتين الأولى باثبات الأزلية لله (الأول والآخر) والثانية بنفي المعاني التي

١ . دلائل الاعجاز : ٣٣٢ .

٢ . نهاية الايجاز في دراية الاعجاز : ٨٢ .

٣ . دلائل الاعجاز : ٣٣٣ .

٤ . شرح نهج البلاغة : ٦ ، ٤١٠ .

للمخلوق وتنزيهه سبحانه عنها ودفع الشبهة عند المنكرين.

ويأتي التقديم مفيداً أثراً نفسياً ودلالياً لضرورة يقتضيهما الخطاب باستدعاء الاستمالة والتصديق وذلك بتقديم ما هو ادعى، يقول أيضاً (بتشعير المشاعر عرف أن لا مشعر له وبمضادته بين الأمور عرف أن لا ضدّ له وبمقارنته بين الأشياء عرف أن لا قرين له)^١.

فبتقديم المتعلق (الجار والمجرور) جاء التخصيص لأن فيه الحجة قبل الوصول للنتيجة وهي التنزيه.

ونجد هذا الأسلوب بشكل كبير في أدعية السجاد كما في قوله (عليه السلام) منزهاً أن يكون الدعاء لغيره سبحانه.

(أنت المخصوص قبل كلّ مدعو بدعوتي لا يشركك أحد في رجائي ولا يتفق أحد معك في دعائي.. لك يا إلهي وحدانية العدد وملكة القدرة الصمد وفضيلة الحول والقوة.. فتعاليت عن الأشباه والأضداد وتكبرت عن الأمثال والأنداد فسبحانك لا إله إلا أنت)^٢.

١. م.ن: ١٣، ٥١.

٢. الصحيفة السجادية: ١٢٨.

تظافرت مظاهر القصر وبدت فاعليته في جملة أمور منها الابتداء بالضمير أنت وحصرها بـ(المخصوص) ومنها تقديم شبه الجملة (الجار والمجرور)(لك) على ما سيتوالى من أخبار (وحدانية، ملكة، فضيلة..). ومنها الحصر في (لا إله إلا أنت) وفي وصف حمده لله تعالى نجد هذا الأسلوب حاضراً في قوله (عليه السلام) (حمداً لا ينبغي إلا لك ولا يتقرب به إلا إليك)^١ بنفي

الشركة في هذه العبارة وإفادة التخصيص. ومن التقديم ما جاء في دعائه (إلهي لك يرهب المترهبون وإليك أخلص المستهلون، رهبة لك ورجاء لعفوك)^٢.

ويؤكد الامام السجاد (عليه السلام) قصر الصفات العظيمة بالله وحده بجملة ثوابت (ليس كمثله شيء ولا يعزب عنه علم شيء، وهو بكل شيء محيط، وهو على كل شيء رقيب، أنت الله لا إله إلا أنت الأحد المتوحد الفرد المتفرد)^٣ فقد

جاء النفي بـ(ليس ولا) للتنزيه، فالاثبات بالجمال الخبرية للتوكيد ثم بالضمير أنت للتخصيص مع

١ . الصحيفة السجادية: ١٩٩.

٢ . م. ن: ٢٤٤.

٣ . م. ن: ١٩٦.

حصر الإلوهية به سبحانه (لا إله إلا أنت)؛
بالاثبات بعد النفي فضلاً عن تعدد الأخبار زيادة
في التوكيد (الأحد المتوحد الفرد المتفرد).

ومن الحصر ما تفيده (انما) لاثبات الظاهر
المعلوم الذي لا ينكر ولا يدفع ولا يخفى^١ يقول

النص السجادي في دعائه حامداً وممجداً (اللهم
انما يكتفي المكتفون بفضل قوتك فصلّ على
محمد وآله واكفنا، وانما يعطي المعطون من
فضل جدّتك فصلّ على محمد وآله واعطنا،
وانما يهتدي المهتدون بنور وجهك فصلّ على
محمد وآله واهدنا)^٢.

ولقد اتسع حضور هذا الأسلوب في مستهلات
أدعيته لما في منهج الدعاء وأدبه عموماً من
تفصيل ومناجاة محببة مرغوبة، ولمقتضيات
مناسبة الدعاء أيضاً، كما في تضرعه إلى الله
يوم (عرفة) فقد تردّد هذا الأسلوب مقترناً باسم
من أسماء الله الحسنى حتى بلغ التزديد عشر
مرات بتوالي الجمل الاسمية، فقد ابتدأ بقوله
(أنت الله لا إله إلا أنت) وأنهى المقطع التمجيدي
بهذا الأسلوب الحصري أيضاً بقوله (وأنت الله
لا إله إلا أنت الذي أنشأت الأشياء، من غير

١ . دلالة الاعجاز ٣٢٩ .

٢ . الصحيفة السجادية: ٥٠ .

سنخ وصورت ما صورت من غير مثال
وابتدعت المبتدعات بلا احتذاء)^١.

رابعاً: (بلاغة التواصل في الحوار)

سعى الامام علي (عليه السلام) بخطبه ووصاياه
إلى مخاطبة العقول الجاحدة المنكرة كي تستتير
وتهتدي، واعتمد على مناهج جدلية لاثبات
الحقائق المتعلقة بالذات الإلهية تنزيها وتقديساً
ومنها (دحض المضادات) بنفي لزوم متعلق هذه
الصفات يقول النص العلوي (الأول الذي لم
يكن له قبل فيكون شيء قبله، والآخر الذي لم
يكن له بعد فيكون شيء بعده والرادع اناسي
الأبصار عن أن تتاله أو تدركه)^٢.

وبملاحظة مناسبة القول نجد فيها (أن رجلاً أتاه
فقال يا أمير المؤمنين صف لنا ربنا مثل ما نراه
عيانا لنزداد له حبا وبه معرفة فغضب ونادى:
الصلاة جامعة فاجتمع إليه الناس حتى غُصَّ
المسجد بأهله فصعد المنبر وهو مغضب متغير
اللون فحمد وأثنى عليه وصلى على النبي ثم
قال: الحمد لله الذي لا يفره المنع والجحود ولا

١. م. ن: ١٩٦ - ١٩٧.

٢. شرح نهج البلاغة: ٦ ، ٤٤٥.

يكديه الاعطاء والجود إذ كل معط منتقص سواه
وكل نافع مذموم ما خلاه..^١.

ينفي الامام عن الخالق سبحانه صفات المخلوقين
في طباعهم وتعاملهم كالافتقار في حال الانفاق
والاغتناء في حال الامساك كي يفتع المخاطب
بتنزيه ربه عن أي تحديد أو تجسيد أو تشبيه لما
في فكره القاصر المحدود من صور الخلق أيًا
كانت.

والجدل الفكري يفضي إلى كشف تناقض آراء
المتكلمين ودحضها لتتهاوى مقولاتهم واحدة إثر
أخرى كما في قوله مخاطباً (فمن وصف الله
سبحانه فقد قرنه، ومن قرنه فقد ثناه، ومن ثناه
فقد جزّاه ومن جزّاه فقد جهله ومن جهله فقد
أشار إليه ومن أشار إليه فقد حدّه ومن حدّه فقد
عدّه ومن قال (فيم) فقد ضمّنه ومن قال علام فقد
أخلّى منه)^٢.

توجه النص لاقناع المخاطب بأنّ كمال توحيد
الله هو في نفي صفات المخلوقين عنه استدلالاً

١ . شرح نهج البلاغة: ٦ ، ٤٤٥ .

٢ . م. ن: ١ ، ٦٢ .

بأن (صفات المخلوقين من لوازم الجسمية والعرضية والباري ليس بجسم ولا عرض)¹.

ويلجأ الأسلوب الحوارى إلى توظيف الحجة العقلية والحجة هي (البرهان... والحجاج الجدل)² وذلك للاقناع والاستمالة وردّ الشبهات

بالتساؤل الانكارى محاجة بالأداة (كيف) (ولا تجري عليه الحركة والسكون وكيف يجري عليه ما هو أجراه ويعود فيه ما هو أبدأه) لتأتى الاجابة اقناعاً للمكرر (إذاً لتفاوت ذاته ولتجزأ كنهه ولا تمتنع من الأزل معناه)³.

والمناظرة العقلية تستدرج المخاطب بتوليد معنى من آخر بخطوات منظّمة مترابطة كقوله (عليه السلام) (الحمد لله الدال على وجوده بخلقه، وبمحدث خلقه عن أزليته)⁴.

وقوله (عليه السلام) (جعل لكل شيء قدراً، ولكل قدر أجلاً ولكل أجل كتاباً)⁵ وبضرب الأمثلة التقريبية تعجيزاً لهم كما جاء في الردّ

١ . م . ن : ٦٥ .

٢ . القاموس المحيط، مادة حجج .

٣ . شرح نهج البلاغة: ١٣ ، ٥٣ .

٤ . م . ن : ١٠١ ، ٩٠ .

٥ . م . ن : ١٠ ، ٢٩٣ .

على من تكلف وصف ربّه (بل إن كنت صادقاً أيها المتكلف لوصف ربّك، فصف جبريل وميكائيل وجنود الملائكة المقربين في حجرات القدس مرجحئين متولّهة عقولهم أن يحدّوا أحسن الخالقين وانما يدرك بالصفات ذو الهيئات والأدوات)¹.

ولأنّ الحوار تواصل مباشر أو غير مباشر ولما كنّا قد وجدناه حاضراً في الخطاب العلوي حين ساعد على توصيل الفكرة وبدلائل منطقية وحجج عقلية ومناظرات جدلية فإنّ الحوار في أدب الصحيفة السجادية قد منح الخطاب حيوية وفاعلية متنوعة من حوار النفس إلى مناجاة الخالق.

فمن دعائه (وقلت سبحان ربي كيف يسأل محتاج محتاجاً وأنى يرغب معدم إلى معدم، فقصدتك يا إلهي وأوفدت عليك رجائي بالثقة بك وعلمت أن كثير ما سألك يسير في وجدك وأن خطير ما استوهبت حقير في وسعك)².

وتجد المناظرة سبيلها حين تمنح الخطاب تفصيلاً بالسؤال والجواب والمحااجة، نقرأ في دعائه في الرهبة، تمجيداً لقدرة الله ووصف

١. م. ن: ١٠، ٢٧٧.

٢. الصحيفة السجادية: ٧٢.

ضعف المخلوق بتضرع ومناجاة (اللهم فإني امرؤٌ حقيرٌ وخطري يسيرٌ وليس عذابي مما يزيد في ملكك مثقال ذرة، ولو أن عذابي مما يزيد في ملكك لسألتك الصبر عليه وأحببت أن يكون ذلك لك ولكن سلطانك اللهم أعظم وملكك أدوم من تزيد فيه طاعة المطيعين أو تنقص منه معصية المذنبين) ١.

وفي (مناجاة الخائفين) يمجّد النص السجادي الله تعالى بالعدل والرحمة في مناظرة تعتمد السؤال المتضمن اجابته (إلهي نفسٌ أعزرتها بتوحيديك كيف تذللها بمهانة هجرانك، وضمير انعقد على مودتك كيف تحرقه بحرارة نيرانك) ٢.

وبمناجاة روحية فيها تقابل منطقي بين قدرة الله وعفوه، وذنوب العبد وضعفه يقول (عليه السلام) (يكاد رجائي لك مع الذنوب يغلب رجائي لك مع الأعمال لأنني أجدني أعتمد في الأعمال على الاخلاص وكيف احرزها وأنا بالآفة معروف وأجدني في الذنوب أعتمد على عفوك وكيف لا تغفرها وأنت بالجود موصوف) ٣.

١ . الصحيفة السجادية: ٢٢٨.

٢ . م. ن: ٢٨٠.

٣ . شرح نهج البلاغة: ١١ ، ١٣٣.

التقت المضامين في النتاجين وهي تحاور
المخاطب وتعددت السبل فكان المتفرد منها
والمشترك ولنضرب شاهداً على ذلك.

يقول النص العلوي (الحمد لله الذي لم يسبق له
حال حالاً فيكون أولاً قبل أن يكون آخراً ويكون
ظاهراً قبل أن يكون باطناً) ^١ أي أنه سبحانه لم

يزل موجوداً ولا شيء من الأشياء بموجود
أصلاً وهو سبحانه باق لا يزال وكل شيء من
الأشياء يفنى، فالذات الإلهية مستحقة الأولوية
والآخريّة استحقاقاً ذاتياً ضرورياً، وتأتي اثر هذا
التقديم تفصيلات أخرى توكيدية في جمل اسمية
متواترة ومتماثلة التركيب (كل مستحق بالوحدة
غيره قليل، وكل عزيز غيره ذليل وكل قوي
غيره ضعيف، وكل مالك غيره مملوك..) حتى
يقول: (وكل ظاهر غيره غير باطن وكل باطن
غيره غير ظاهر) فليس غير الله يجمع بين
النقيضين معاً (ظاهراً وباطناً).

ونقرأ في النص السجادي التمجيدي ما يماثله: (
الحمد لله الذي تجلّى للقلوب بالعظمة واحتجب
عن الأبصار بالعزّة واقتدر على الأشياء
بالقدرة... الأول بلا زوال والدائم بلا فناء) ^٢.

١. م. ن: ٥، ١٠١.
٢. الصحيفة السجادية: ٢٤٤.

إلى هنا والمؤدّي واحد في النصين غير أن الامام السجاد يطلعننا هنا بأن القلوب المحبة تصل إلى تجلّي عظمة خالقها بما ينعمه عليها سبحانه من كشف روعي حين تعجز الأبصار عن الإدراك للعزّة المانعة والمعنى دقيق في تناوله فقد أراد الامام علي (عليه السلام) تنزيه الخالق وتمجيده للجمع بين الصفتين المتضادتين (ظاهراً وباطناً) واستحالة أن يقدر المخلوق على هذا بحجة عقلية مقرّبة، أما الإمام السجاد (عليه السلام) فأراد القرب الإلهي والسعادة التي ينشدها العبد لتجلّي المحبة في النفوس التي تدرك بنشوة روحية عظمتة سبحانه حين تعجز الأبصار عن ذلك.

جاء الحوار في أدب الامام علي (عليه السلام) حاملاً معه أنماطاً فكرية تواصل فيها مع الآخر بتكثيف عن طريق أدوات البحث مثل الاستفهام (كيف، والأفعال الطلبية التعجيزية (مضف..)) والاحتجاج (إذا التفات) والاستدراج (فمن وصف فقد قرن ومن..فقد) وبها ناشد عقل المخاطب ليزيده يقيناً، وتوجه الامام السجاد (عليه السلام) في حوار المتواصل إلى قلب من يسمع ويقرأ أدعيته ليزيده خشوعاً وإلى روحه ليسمو بها إلى عظمة الباري رحمةً وقرباً.

لقد دأب الخطابان الشريفان بهذا التواصل الحواري على حثّ الفكر البشري ومعه السلوك العملي على المعرفة واليقين بتأمل الخلق وأوله ذات المفكر وصولاً للخالق ولتمجيده، والتعرّف على النعم الإلهية اهتداءً إلى المنعم وشكره. وقد تحققت سُبُل الافضاء بالحمد والتمجيد ببلاغة عالية ولمسة جمالية تقوم (على ثوابت من حيث العناية باللغة والصورة التي لا تنفك تبرز في كل أنماط الخطاب)^١ وماذا إلا لأنّ أدب الجد والحفيد (عليهما السلام) كما غلب عليه اليقين الصادق وحب الخالق تعالى فقد شغله أيضاً أمر العباد وقيّده التزاماً بتحريره فكراً ووجوداً فكان عطاءً فنياً بهذا الأدب الرفيع الخالد، وعطاءً روحياً ببذل نفس زاكية راضية مرضية.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١ - الإيضاح في علم البلاغة، القزويني محمد بن سعد ط بيروت ١٩٩٨.

١ . الخطاب في نهج البلاغة: ٢٣٧.

- ٢- تحف العقول عن آل الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، الشيخ الحسن بن علي الحراني ط بيروت ١٩٦٩.
- ٣ - الخطاب في نهج البلاغة، د. حسين العمري ط دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠١٠.
- ٤- دلائل الاعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي ط القاهرة ١٩٧٧.
- ٥- شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد قدم له وعلق عليه الشيخ حسين الأعلمي ط مؤسسة الأعلمي، بيروت، ٢٠٠٤.
- ٦- الصحيفة السجادية، الامام زين العابدين علي بن الحسين (عليه السلام) تقديم السيد محمد باقر الصدر ط دار التيار الجديد، بيروت، ٢٠٠٢.
- ٧- العبقريات الإسلامية، عباس محمود العقاد ط دار الآداب، بيروت ١٩٦٦.
- ٨ - عيار الشعر، ابن طباطبا العلوي محمد بن أحمد، تحقيق د. طه الحاجري و د. محمد زغول سلام، ط القاهرة ١٩٥٦.
- ٩- القاموس المحيط، الفيروزبادي ط مصطفى البابي الحلبي وأولاده مصر ١٩٥٢.
- ١٠ - قراءات انطباعية في نهج البلاغة، علي حسين الخباز ج ١ ط الغدير ٢٠٠٩.

- ١١- قراءة لغوية ونقدية في الصحيفة السجادية،
د. كريم حسين ناصح و د. حميدة صالح ط دار
صفاء، عمان ٢٠١٠.
- ١٢- المستدرك على الصحيحين، الحاكم
النيسابوري، تحقيق: د. محمود مطرجي ط دار
الفكر، بيروت ٢٠٠٢.
- ١٣ - المستويات الجمالية في نهج البلاغة، نوفل
هلال أبو رغيف ط دار الشؤون الثقافية بغداد
٢٠٠٨.
- ١٤ - معاني القرآن الكريم، النحاس أحمد بن
محمد ج ١، تحقيق: محمد علي الصابوني،
جامعة أم القرى، مكة المكرمة ١٤٠٩هـ.
- ١٥ - منهج البلغاء وسراج الأدباء، حازم
القرطاجني، تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة
تونس ١٩٦٦.
- ١٦ - نهاية الإرب وبلوغ الأدب، النويري أحمد
بن عبد الوهاب، المؤسسة المصرية العامة
للتأليف، القاهرة (د.س).
- ١٧- نهاية الايجاز في دراية الاعجاز، فخر
الدين الرازي، محمد بن عمر، تحقيق: د. إبراهيم
السامرائي و د. محمد بركات حمدي ط دار
الفكر عمان ١٩٨٥.